

-التواصل الثقافي بين الجزائر ومحيطها العربي الإسلامي:

ارتبطت الجزائر بالإيالات العربية في شمال إفريقيا بروابط اجتماعية قوية، نظراً لحركة الهجرة من إقليم الجزائر إلى هذه البلاد في إطار حركة التجارة والحج وانتقال العلماء بين هذه الأقاليم.

لقد ساهمت قوافل الحج وحركة انتقال العلماء، في حركة التواصل بين الجزائر وتونس، وكانت قوافل الحج المغربية التي تضم قافلة الحج الجزائرية والمتجهة إلى الحجاز، تمر بالمدن التونسية، وتعبر إيالة طرابلس الغرب، لتجتمع بقافلة الحج المصرية بمدينة القاهرة، ومع ذلك لم يفرض العثمانيون حدوداً سياسية ولا حواجز إدارية، تمنع انتقال مسلمي المغرب إلى المشرق، وهو ما ساهم في حرية انتقال الأفراد والجماعات في المناطق الخاضعة لسلطة الباب العالي للقيام بمناسك الحج وكذا التجارة، وهذا ما نلاحظه من خلال هجرة العلماء وطلاب العلم إلى مراكز العلم ومؤسساته، مثل جامع الزيتونة وجامع الأزهر وجامع الحرمين.

وقد اعتبر جامع الزيتونة بتونس مقصدا للطلبة الجزائريين الوافدين إليه طلبا للعلم والاجازات العلمية التي كان يمنحها كبار العلماء، والظاهر أن هناك مجموعة من العوامل والأسباب التي جعلت من علماء الجزائر يتخذون تونس منطلقا ومقصدا لرحلاتهم، فمنها ما هو متعلق بالأوضاع السائدة بالبلدين، ومنها ما هو متعلق بتاريخ العلاقات بين القطرين ومنها ما يرجع إلى العامل الجغرافي والترابط الاجتماعي الذي يجمع البلدين¹.

ويشير شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله إلى أن تونس لم تتأثر ثقافتها بالمستعمر الفرنسي وذلك في قوله: "إن الاستعمار الفرنسي لم يؤثر على الثقافة العربية في تونس بفعل جامع الزيتونة الذي حصن البلد من فعالية الاستعمار، أما الجزائر فلم تكن تتمتع بمؤسسة دينية تعليمية عريقة كالتى ذكرناها لا قبل ولا بعد الاستعمار"²، وهذه حقيقة واقعة بالفعل فالمؤسسات الدينية التي كانت تنشط بالجزائر لم تكن فعاليتها تتعدى حدودا جغرافية معينة مقارنة بنظيراتها في تونس أو المغرب أو مصر، وهذا النشاط في الغالب كانت تقوم به

¹ - محمد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب، المعرف التونسي للطباعة، 1967، ص 99.

² - أبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص 56.

الزوايا والكتاتيب والمدارس التي كانت منتشرة في مناطق عديدة وهذا ما أبرزناه في المحاضرات السابقة.

وبالمقابل فقد زار العلماء التونسيون الجزائر ولكن ليس بالقدر نفسه، فبحكم التشابه النسبي في النظم السياسية بين الولايتين العثمانيتين ورد على الجزائر في العهد العثماني بعض العلماء والقضاة الحنفية من تونس، نذكر منهم على سبيل المثال أبو الطيب، الخطيب أمير محمد ومولانا إبراهيم بن حاجي علي حيث وصلوا إلى الجزائر في نهاية القرن 10هـ / 16م، أما خلال القرن 11هـ / 17م نجد كل من تاج العارفين البكري، وإبراهيم الغرياني، اللذين جاءا في إطار مبادرة صلح بين البلدين بعد موقعة (1037هـ / 1627م)، وقد تبادلوا الرسائل مع بعض علماء الجزائر أهمهم عبد الكريم الفكون¹.

أما مصر فقد كان جامعها الأزهر منارة علمية وحضارية، زادها موقعها الجغرافي بين الشرق والغرب جذباً لكثير من علماء وطلبة الجزائر، لتلقي العلوم على أيدي علماء وفقهاء جامع الأزهر، أو تجاراً في موانئ مصر على سواحل البحر المتوسط والبحر الأحمر.² ومن أبرز العلماء الجزائريين الذين توافدوا على مدينة القاهرة، عبد الرزاق بن حمادوش (ت1791م)، وأبو راس الناصري (ت1823م)، وعيسى الثعالبي (ت1669م)، وشهاب الدين المقري (ت1641م)، ويحيى الشاوي (ت1685م)، والذين كان لهم تأثير كبير في الحياة الثقافية بالجزائر.

إن الرغبة التي كانت توجه الجزائريين نحو الحجاز أيضا كان مردها الوازع الديني قصد زيارة البقاع المقدسة التي وطئتها أقدام الرسول صلى الله عليه وسلم، فالحجاز في نظرهم ليست مجرد بقعة جغرافية تزار للسياحة والعلم، ولكنها كانت قطعة أرض طاهرة تضم تاريخ الوحي والدعوة والأمة الإسلامية، ولذلك فهم يسجلون عواطفهم المتأججة لرؤية الحجاز وأهله والتبرك بترابه وهوائه، والذي يقرأ مقدمة رحلة ابن عمار يدرك هذه الحقيقة³.

وفيما يلي بعض النماذج على سبيل المثال لا الحصر لأهم الرحلات العلمية لعلماء الجزائر إلى مختلف الأقطار العربية والإسلامية:

¹ - عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من أدعى العلم والولاية، المصدر السابق، ص ص 215-222.

² - عبد القادر فلوح، محاضرات تاريخ الجزائر الحديث في مقياس الحياة الثقافية في الجزائر، جامعة الجبالي بونعامة خميس مليانة، 2020-2021م، ص ص 10-13.

³ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج 2، ص 387.

نماذج من الرحلات العلمية لعلماء الجزائر:

امتاز علماء الجزائر خلال الفترة العثمانية كغيرهم بكثرة ترحالهم إلى مختلف الأقطار إما طلباً للعلم أو الإطلاع وزيارة مختلف البلدان وممارسة التجارة أيضاً، وقد كانت هذه الرحلات من أهم الأسباب التي ساهمت في عملية التواصل الثقافي والحضاري للجزائر مع نظيراتها في المغرب أو المشرق، وفيما يلي نماذج لأبرز علماء الجزائر خلال الفترة العثمانية:

أ- رحلة أحمد المقرئ (986-1041هـ / 1578-1632م):

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش المقرئ التلمساني، ينتسب إلى أسرة ذات علم وصلاح، تعود أصولها الأولى إلى بلدة مقرة بمنطقة الحضنة بالشرق الجزائري، استقرت بتلمسان وتولى أفرادها وظيفة القضاء والإفتاء والخطابة والإمامة.

ولد أحمد المقرئ بتلمسان سنة (986هـ / 1578م) وعندما استكمل دراسته بتلمسان توجه إلى فاس وهو ابن الرابعة والعشرين (1009 هـ / 1600 م) واتصل فيها بالفقيه إبراهيم بن محمد الأبسي أحد قادة السلطان أحمد المنصور الذهبي، فأعجب به وأصطحبه إلى مراكش وقدمه إلى المنصور، وعندما عاد إلى تلمسان آخر سنة (1010هـ / 1601م) عزم على إتمام كتابه روضة الآس ليقدمه للسلطان أحمد الذي توفي قبل أن ينهي المقرئ كتابه، بعدها عاد إلى فاس فمكث بها 15 سنة عمل فيها بالإمامة والخطابة بجامع القرويين، وارتقى إلى منصب الإفتاء¹.

بعدها انتقل إلى مدينة تونس وسوسة وبلغ الإسكندرية ومنها قصد القاهرة وأقام بها قرابة الشهر ثم توجه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج (1028هـ / 1618م)² ثم انتقل إلى دمشق التي بقي فيها أربعين يوماً ولم يغادر المقرئ دمشق إلا بعد أن قطع عهداً بتسجيل مآثر لسان الدين بن الخطيب نزولاً عند رغبة صديقه ومضيفه أحمد شاهين رغم ترده أول الأمر خوفاً من نقص المصادر وكان ينوي عند عودته إلى مصر ترتيب أموره والاستعداد للرجوع إلى فاس أو الانتقال إلى دمشق³.

¹ - ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، المرجع السابق، ص 327.

² - المرجع نفسه، ص 328.

³ - نفسه، ص 329.

ب- رحلة الحسين الورثلاني (1125هـ - 1193 / 1713-1780م):

ولد الحسين بن محمد السعيد في بني ورثلان سنة 1125 وتوفي بنفس المكان سنة 1193، نشأ نشأة فقيرة أساسها النقشف، حفظ الورثلاني القرآن الكريم وهو في سن مبكرة في المدرسة القرآنية التي كان يديرها والده، وطلب العلم في مختلف الزوايا، فتعلم الفقه والنحو ثم أضاف إلى ذلك علمي التصوف والتوحيد، وهكذا أصبح الورثلاني، كجده ووالده، من علماء المنطقة البارزين، وقد أصبح بعد ذلك من المدرسين وشيخ زاوية الأسرة¹. وكان يذهب للتدريس في بجاية وغيرها. وقد تخرج على يديه عدد كبير من التلاميذ الذين تولوا بدورهم وظائف دينية سامية، وغلبت على الورثلاني الروح الصوفية أكثر من الروح الفقهية كونه كان يجمع بين علوم الظاهر والباطن².

ألف الورثلاني العديد من الكتب، وأكبر عمل له هو الرحلة فعزم على أن يكتب عملاً ضخماً يضاهي به أو يفوق عمل الدرعي والعياشي وغيرهما من كتاب الرحلة المغاربة وقد سمى رحلته (نزهة الأنظار في فصل علم التاريخ والأخبار). من هنا فإن رحلة الورثلاني تعتبر موسوعة أخبار هامة ضمت تفاصيل لا غنى عنها تخص العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر (18 م)، وكان تكرار حجه وإتقانه للعربية ومعرفته بعادات الشرق والغرب قد جعلت الورثلاني حكماً منصفاً على العصر وأهله في كثير من المناسبات³.

ج- رحلة أبو راس الناصري: (1150-1238هـ / 1737-1823م):

هو محمد بن أحمد عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر الجليلي المعسكري، ولد بناحية جبل كرسوط حوالي 1150 هـ / 1737 م. من عائلة فقيرة، اشتغل أبوه بتعليم القرآن، وقد اصطحبته عائلته إلى متيجة حيث فقد أمه، وبعدها انتقل مع أبيه إلى مجاجة، وبوفاته كفله أخوه الأكبر عبد القادر وذهب به إلى المغرب قبل أن يستقر به المقام بمعسكر⁴. بدأ تعليمه بالكتاب بمتيجة ثم بمجاجة، وحفظ القرآن عندما كان مقيماً بالمغرب وعندما عاد إلى معسكر تتلمذ على الشيخ عبد القادر المشرفي ولزمه وخدمه مدة، ثم انتقل

¹ - ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، المرجع السابق، ص 394.

² - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج 2، ص 394.

³ - المرجع نفسه، ص 398.

⁴ - ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين، المرجع

السابق، ص 460.

إلى الريف حيث تزوج واشتغل بالتعليم وتولي القضاء مدة سنتين، ثم عاد إلى معسكر ليقوم بها 36 سنة، واشتهر أثناء ذلك بسعة اطلاعه وبتأليفه وأسندت إليه مهمة التدريس كما تولى الإفتاء فترة ثم عزل منه عام 1217م. ثم خلف أستاذه عبد القادر المشرفي في إلقاء الدروس، وقد بلغ عدد طلبته في الحلقة 780 مستمعاً. تميزت حياته بالتقشف والحرمان حتى توفي عن سن تناهز التسعين عاماً. (1238 هـ / 1823م)¹.

عرف بترحاله إلى الكثير من المناطق وتعرف على أوضاعها واتصل بعلمائها، حيث حج مرتين الأولى عام 1204 هـ / 1790 . والثانية سنة 1226 هـ / 1812م. كما زار شرق الجزائر، وزار تونس ومصر والشام وفلسطين، كما توجه إلى المغرب الأقصى وقصد السلطان العلوي مولاي سليمان ومكث مدة بتطوان وفاس (1216 هـ) اكتسب أبوراس الناصري ثقافة واسعة بانكباه على المطالعة واتصاله بالعلماء ومواظبته على حفظ العلوم ساعدته على ذلك حافظته القوية حتى عرف بحافظ المغرب الأوسط².

وقد كانت له اتصالات وعلاقات بالعديد من علماء عصره مثل محمد الصادق أفغول، ومحمد بن جعدون وأحمد بن عباد، ومحمد بن الشاهد، وعلي بن الأمين، ومحمد بن مالك بمدينة الجزائر، ومحمد بن الفقون، والحاج علي الونيسي، وأحمد العباس بقسطنطينة، ومحمد بن المحجوب وصالح الكراش وإبراهيم الرياحي وأحمد بيرم التونسي بتونس، ومرتضى الزبيري وعبدالله الشرقاوي ومحمد الأمير بمصر. اشتهر أبو راس الناصري بالتأليف العديدة التي اعتمد فيها على الحفظ والنقل والرواية. فقد ذكر عن نفسه أن ما ألفه بلغ 63 كتاباً ونسب إليه 137 مصنفاً منها ما نشر ومنها ما زال محفوظاً ومنها ما يعتبر في حكم المفقود³.

¹ - ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين، المرجع السابق، ص 460.

² - المرجع نفسه، ص 460.

³ - نفسه، ص 461.

خاتمة:

من خلال دراستنا لمختلف جوانب الحياة الثقافية في الجزائر خلال الفترة العثمانية نستنتج ما يلي:

- أن الوضع الثقافي في الجزائر العثمانية على العموم كان مزدهرا من خلال الحركية الثقافية التي شملت مختلف جوانب الحياة الثقافية بالرغم من الفراغ الذي كان حاصلا على مستوى المؤسسات الثقافية.

- لعبت المؤسسات الثقافية في الجزائر على غرار الأوقاف والزوايا والمدارس والمكتبات دورا فاعلا في النهوض بالمستوى الثقافي وكانت الدعامة الرئيسة في استمراريته وانتشاره بشكل واسع في مختلف ربوع إيالة الجزائر.

- بالرغم من إهمال العثمانيين للتعليم وعدم اهتمامهم به إلا أن التعليم كان منتشرا بشكل لافت في الزوايا والمدارس والكتاتيب.

- كان لعلماء الجزائر دور كبير في انتشار الفعل الثقافي في الجزائر العثمانية من خلال نشاطهم الدؤوب أمثال: ابن محرز الوهراني، أحمد الونشريسي، محمد بن يوسف السنوسي التوحيدي، وقد حظيت هذه الفئة بالاحترام والتقدير من طرف المجتمع فمنهم من تولى القضاء والإفتاء والإمامة.

- انتشرت العديد من الطرق الصوفية في الجزائر خلال الفترة العثمانية كالطريقة القادرية والرحمانية، والشاذلية... الخ، وكان لها دور بارز في التعليم القرآني وتنمية الجانب الروحي لمختلف أطياف المجتمع.